

النهضة العربية في بلاد الشام

ق19

حسوني محمد عبد الغني

النهضة العربية في بلاد الشام ق 19

شهدت بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر واحدة من أبرز الحركات الفكرية والثقافية التي أرست أسس النهضة العربية الحديثة، والتي شكلت نقطة تحول في مسار الوعي القومي والتطور المعرفي العربي، وقد تزامنت هذه النهضة مع تحولات عميقة شهدها العالم العربي بفعل الاحتكاك مع الغرب، وخاصة إثر الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، وما تبعها من تطورات سياسية وثقافية كان لها تأثير غير مباشر على المشرق العربي. ولعبت الإصلاحات العثمانية المعروفة بالتنظيمات، التي انطلقت منذ ثلاثينيات القرن، دورًا جوهريًا في فتح المجال أمام حرية التعبير النسبي، وتحديث بعض المؤسسات الإدارية والتعليمية، ما سمح بنشوء طبقة مثقفة جديدة تواقة إلى التجديد وإعادة إحياء التراث العربي والإسلامي. وفي هذا السياق، بزغ نجم عدد من المفكرين والمصلحين في بلاد الشام، ممن عملوا على إعادة إحياء اللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التجديد العقلي والانفتاح على العلوم الحديثة، وكان من أبرزهم بطرس البستاني الذي يُعد من أعمدة النهضة الثقافية، إذ أسس أول مدرسة وطنية غير طائفية في بيروت، وأصدر "دائرة المعارف"، كما لعب دورًا رائدًا في النشر والتعليم. إلى جانبه، تألق ناصيف اليازجي، الذي أسهم في تقعيد اللغة العربية وإحياء الأدب الكلاسيكي، كما ساهم في إعداد الجيل الجديد من المثقفين الذي حمل مشعل النهضة إلى أرجاء العالم العربي. ولم تقتصر هذه النهضة على النخبة فحسب، بل بدأت تمتد إلى شرائح أوسع من المجتمع، بفضل تطور الطباعة وإنشاء المطابع، ومنها المطبعة الأمريكية في بيروت التي ساهمت في نشر الكتب والمجلات والصحف، وكان لها دور كبير في نشر الأفكار الحديثة. كما أسهمت الإرساليات التبشيرية، رغم أهدافها الدينية، في تأسيس مدارس ومعاهد ساهمت في نشر

التعليم المدني وتعميم استخدام اللغة العربية، ما أسفر عن تحولات معرفية عميقة في البنية الثقافية للمجتمع الشامي. وشهدت تلك الفترة ازدهار الصحافة العربية، فظهرت مجلات وصحف كانت منابر للفكر الجديد مثل "الجنان" و"النفائس العصرية" و"المقتطف"، وقد لعبت هذه الوسائط دورًا مهمًا في نشر التنوير، ونقد الاستبداد، والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي والتربوي. من جهة أخرى، كان للمدارس الحديثة مثل "المدرسة السورية الإنجيلية" و"مدرسة الحكمة" دور كبير في تخريج أجيال من المتعلمين الذين حملوا مشاعل التقدم العلمي والثقافي، وتولوا لاحقًا أدوارًا ريادية في مختلف المجالات الفكرية والسياسية. وقد أسهمت النهضة في ترسيخ مفاهيم جديدة مثل المواطنة، والحرية، والدستور، وحقوق الإنسان، وهي مفاهيم شكلت نواة للفكر القومي العربي الذي بدأ يتبلور تدريجيًا كرد فعل على تدهور الدولة العثمانية وتزايد التدخلات الأجنبية في شؤون المنطقة. وكان للنهضة أيضًا بُعد إصلاح ديني، حيث ظهرت محاولات لقراءة النصوص الدينية بروح عقلانية تتماشى مع معطيات العصر، بعيدًا عن الجمود التقليدي، كما ظهر تيار يدعو لفصل الدين عن السياسة دون معاداة الدين، في محاولة لتحقيق توازن حضاري. ورغم ما حققته النهضة من إنجازات ثقافية وفكرية، فإنها واجهت تحديات جسيمة، أبرزها الصراعات الطائفية، وتفاوت مستويات التعليم، إضافة إلى الرقابة العثمانية التي كثيرًا ما كانت تعيق حرية النشر والتعبير، فضلًا عن اختراق القوى الأوروبية للمجال الثقافي المحلي من خلال إرسالياتها ومناهجها التعليمية. ومع ذلك، تمكنت هذه النهضة من وضع أسس راسخة لحركة فكرية عربية واعية، مثلت لاحقًا المرجعية الفكرية للنضالات السياسية والقومية التي شهدتها المنطقة خلال القرن العشرين، لا سيما مع سقوط الخلافة العثمانية وصعود مشاريع الاستقلال الوطني. وقد تجلت آثار هذه النهضة في اتساع دائرة القراءة، وبروز نخبة عربية متنورة ساهمت في تدوين التاريخ، وتأليف المعاجم، وترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية، كما أُعيد الاعتبار للغة العربية كلغة علم وفكر، بعد أن كانت مهمشة أمام اللغات الأجنبية. ولم يكن تأثير النهضة الشامية محصورًا جغرافيًا، بل امتد إلى مصر والعراق وشمال إفريقيا، حيث شكلت نموذجًا يُحتذى في النهوض الفكري. ولعل أبرز ما ميّز هذه الحركة النهضوية هو أنها لم تكن

ارتجالية أو لحظية، بل كانت ثمرة جهد تراكمي ساهمت فيه عوامل داخلية وخارجية، في ظل مناخ بدأ يتجه ببطء نحو المدنية والانفتاح. وهكذا، مثّلت النهضة العربية في بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر لحظة مفصلية في تاريخ الأمة، إذ أرسّت اللبّات الأولى لبناء مشروع ثقافي عربي حديث، أعاد الثقة إلى الذات العربية، وفتح آفاقاً رحبة للتجديد والتنوير في ظل تحديات الاستعمار والتقليد والتبعية، ولاتزال آثارها ممتدة إلى يومنا هذا في وجدان الثقافة العربية المعاصرة.

اعداد الباحث حسوني محمد عبد الغني